

الأثر الديني في توجيه النقد الأدبي القديم

"النقد الأخلاقي عند العرب"

أ. سكيبة قدور

جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

مقدمة

مما لا شك فيه أن النواة الأولى للنقد الأدبي عند العرب تشكلت في المجالس والندوات الأدبية التي عرفتها أسواق الجاهلية مثل تلك اللقاءات التي كانت بين الشعراء في أفنية الملوك بالحيرة وغسان¹ وإن كانت عكاظ أشهر سوق أدبية عرفتها العرب فيها يلتقي الشعراء مرة كل عام وإن كان ما يدور من ملاحظات نقدية لا يعدو أن يكون أحكاما يسيرة بسيطة قائمة على الانفعال المباشر والتأثر الآني ملائمة لروح العصر، وقد ارتكزت جميعها على جوانب فنية محضة.

حتى إذا جاء الإسلام وأطر كل نواحي الحياة العربية الجديدة بما في ذلك الشعر، انطلاقا من قوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاؤون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون." (23-

(27)

فالإسلام لم يحط من شأن الشعر كفن وإنما قدر خطره وأدرك دوره الخطير أيضا في المجتمع، فحاول أن يجعله من جنود دعوته دون أن يحجر عليه أو يرفض باقي اتجاهاته.

-توجيهات أخلاقية للشعر-

كان للقرآن الكريم وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومواقف بعض الخلفاء من هذا الفن الذي لم يكن للعرب فن غيره الأثر الواضح في ميلاد اتجاه نقدي لم يكن للعرب عهد به هو الاتجاه الأخلاقي الذي وقف جنبا إلى جنب والاتجاه الذي كان سائدا آنذاك.

وسنقف في هذه العجالة عند بعض تلك الملاحظات التي أسست لذلك الاتجاه النقدي الجديد لشخصيات عربية إسلامية كان لها الأثر الفعال في توجيه حركة الشعر أولا ثم حركة النقد التي انبثقت عنه ثانيا، بما تملكه من سلطان ديني روحي آنذاك إلى جانب السلطان السياسي.

ويأتي المصطفى p وهو القدوة والمعلم في مقدمة الموجهين لحياة المسلم في شتى مناحيها بسلوكه اليومي وبالوحي الذي يتزل عليه وبما كان يرسله في الناس من أحاديث موجهة لهم في أمور دينهم ودنياهم، فقد كان يستمع إلى الشعر ويستششد بعض جلسائه الشعر، ويهب برده لكعب صاحب "بانة سعاد"، ويدعو حسانا إلى الرد على المشركين ويرى أن شعره أشد وقعا عليهم من وقع النبل، وهي مواقف كلها تدل على جلال قدر الشعر عنده p لذلك لم يأل جهدا في توجيهه الوجهة الصحيحة التي تخدم الدين. فهو يدعو إلى الارتفاع بالشعر ويحث على تجنب الخبيث من القول، ويجعل الحسن منه ما وافق الحق، وما لم يوافقه لا خير فيه. ويرى أن راوي الشعر المقذع شامتا شأنه شأن الشاعر الذي روى عنه، ذلك لأن الشعر عنده أداة من أدوات التغيير الفعال والبناء في المجتمع به يعطى السائل وبه يكظم الغيظ وبه يبلغ القوم، يقول: "إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق فلا

خير فيه"². وقال: "إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب"³. وكأنه يضع الشعراء في هذا النص المفتوح أمام خيارين بل ويدعو دعوة صريحة إلى ذلك فيقول: "الشعر كلام فيه حسن وقبيح فخذ الحسن ودع القبيح". ويقول: "من قال في الإسلام شعرا مقذعا فلسانه هدر"، وقال: "من روى في الإسلام شعرا مقذعا فهو أحد الشاقمين"⁴

و كأننا به في هذه الأحاديث يرفض المهجاء لما يحدثه من أثر سلبي في النفوس وما يفعله آنذاك في المجتمع العربي ذي النوازع القبلية والشعور الجمعي المتضخم، ليوقف بنا في الأخير عند بعض أبواب الخير التي يمكن أن يلجها الشعراء "الشعر جزل من كلام العرب يعطى به السائل، وبه يكظم الغيظ، وبه يبلغ القوم في ناديهم"⁵

فالشعر عنده ρ وسيلة من وسائل تمجيد تعاليم الدين وإرسائها، ولعل أهم تلك التعاليم مكارم الأخلاق.

ومضى الصحابة على نهجه ρ وواصلوا رسالته، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "علموا أبناءكم العوم والرماية.... وروؤهم ما يجمل من الشعر.... لأنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب" وفي رواية أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري: "مر من قبلك بتعلم الشعر. فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب"⁶. وقال بجيها ابن عباس لما سأله عن سبب تقديمه زهيرا وعده أشعر العرب جامعا بين جمال الأداء وسمو الغاية: "كان لا يعاقل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه"⁷.

وتصدى للغزل الفاحش فقال لما سمع عبد بني الحسحاس ينشد مصورا ما وقع له مع إحداهن:

- توسدني كفا وتثنى معصم
- علي وتحوى رجلها من وراثيا.
- ولقد تحدر من كريمة بعضهم
- عرق علي جنب الفراش وطيب.
- "ويلك إنك لمقتول"⁸.

كما تصدى للهجاء، وقصته مع الخطيئة في هجاء الزبرقان معروفة، فقد استدعى حسان بن ثابت وحكمه في الأمر فأجابته: "لم يهجه ولكن سلح عليه"⁹ وكان ذلك سببا في حبسه الخطيئة، محاولة منه لكف لسانه عن الناس.¹⁰ وهكذا نراه يساهم في ترسيخ الرؤية الأخلاقية للفن وإدخاله دائرة الإلتزام والمسؤولية ومراقبة الضمير.

حتى إذا جاء العصر الأموي عادت الفنون الأدبية الجاهلية إلى الظهور من مفاخرات ومناظرات وفخر كاذب ومديح مبالغ فيه، وعرفت الرؤية الأخلاقية للشعر حالات من المد والجزر.

ومن الذين أدركوا أثر الشعر وقدرته السحرية في التغيير معاوية بن أبي سفيان الذي يقول معاتباً ابنه يزيداً لتقصيره في تعليم ابنه الشعر: "ما منعك أن ترويه الشعر؟ فوالله إن كان العاق ليرويه فيبر، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل"¹¹

ونهي عبد الرحمان بن الحكم عن الغزل لما يحدثه من فساد في نفس المشيب بها وإن كانت شريفة قوم عفيفة نفس، ونهاه عن الهجاء الذي يفقده صداقة كريم أو يثير عليه طيش لئيم لا تحمد عواقب ثورته، ونهاه عن المديح لما يلحقه بصاحبه من ذل السؤال، ليترك له مجالات أخرى لا تؤذي أحداً منها الفخر بمآثر قومه والأمثال والحكم التي تترين بها نفس الشاعر ويؤدب بها غيره: "يا ابن أخي إنك شهرت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء فإنك تغر الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها... وإياك والهجاء فإنك لا تعدوا أن تعادي كريماً أو تستشير به لئيماً، وإياك والمديح فإنه طعمة الوقاح في تفحش السؤال... ولكن افخر بمآثر قومك وقل من الأمثال ما تترين به نفسك وتؤدب به غيرك."¹²

وقد أبي عمر بن عبد العزيز استقبال الشاعر عمر بن أبي ربيعة لما جاءه مهنتا بالخلافة وكذلك رفض استقبال الفرزدق وقال : " لا يظأ والله بساطي " واستشهد لكل منهما بما لا يحمد من شعرهما (الغزل).

أما ناقد الحجاز ابن أبي عتيق فلم يجعل من الدين والأخلاق معيارا لتقييم الشعر أو رفع قدر شاعر أو خفضه فكان عمر بن أبي ربيعة من أشد المقربين إليه، وكان شديد الإعجاب بشعره وكثيرا ما وجه له أحكاما نقدية جمالية¹³ دون أن ينكر عليه شيئا أو ينهاه عن شيء وإن صرح أو أقر بعضيانه في شعره "الشعر عمر بن أبي ربيعة نوبة في القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر، وما عصى الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة".¹⁴

وفي مقابله نجد هشام بن عروة يئبه إلى خطورة شعر عمر بن ربيعة فيقول: "لا ترووا فتياتكم شعر ابن أبي ربيعة ليتورطن في الزنا تورطا".¹⁵

وقد عرفت الساحة الأدبية تحمرا كبيرا وتمردا لكثير من الشعراء على القسيم الخلقية وكذا بعض فئات المجتمع العربي ، فكان سعي الشعراء وحرص النقاد واضحا في تحقيق المتعة الفنية الخالصة بعيدا عن الخيرية، ولن نكون مغالين إذ اعتبرنا هذه النزعة هي الغالبة على أدب العصر الأموي ويكفي دليلا على ذلك ما دار حول فن النقائض على ما فيه من إقذاع وسباب وإفحاش.

فإذا جئنا إلى العصر العباسي وجدنا من توجيه الخلفاء والأمراء والوزراء للشعر الكثير، ويكفي إلقاء إطلالة بسيطة على مواقف بعض الخلفاء من هذا الفن. نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر موقف الخليفة العباسي من المقدمات الخمرية التي روج لها أبو نواس وشعراء كثر، فقد دعاه إلى تجنب مثل هذه المقدمات والإستهلال بالمقدمة التقليدية المعروفة وقد استجاب أبو نواس مكرها يقول:

اعر شعرك الأطلال والدمن القفرا فقد طال ما أزرى به نعتك الخمرا
دعاني إلى وصف الطلول مسلط تضيق ذراعي أن أجوز له أمرا

فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا.¹⁵

الإتجاه الأخلاقي في النقد الادبي (من القرن 3هـ إلى 7هـ) :

إن المتأمل للحركة النقدية الأدبية من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجري بالنظر الى المعيارين البارزين المتلازمين الفن والأخلاق يلاحظ وجود ثلاثة اتجاهات نقدية بارزة، اتجاه يرى أن الدين والأخلاق لا يجب أن يكونا مقياسا على شاعرية شاعر كما أن الكفر لا يكون مقياسا لخموله ويمثل هذا الإتجاه كل من ابن سلام الجمعي، وابن المعتز وقدامة بن جعفر، وأبي بكر الصولي والقاضي الجرجاني،
والثعالبي...¹⁶

واتجاه حرص على الجمع بين القيمتين الجمالية والخلقية وان اختلفت عندهم التطبيقات العلمية وهم قلة مثل الاصمعي الذي كان يحرص في نظيره على المعايير الفنية البحتة ويحرص في منهجه التطبيقي ألا يروي ما يخالف الدين، لم يرو شعرا في الأنواء لقوله صلى الله عليه وسلم إذا ذكرت النجوم فأمسكوا ولم ينشد شعرا فيه هجاء.¹⁷

واتجاه لم يقبل من الشعر إلا ما اتفق وروح الإسلام وأنزله فنيا إذا خرج عن ذلك ويمثل هذا الإتجاه عدد من النقاد سنأتي على ذكر مواقفهم تبعا للتسلسل الزمني التاريخي.

من أوائل النقاد الذين التفتوا إلى أهمية المعنى وشرفه وصوابه أو ما عبر عنه المصطفى p بموافقته للحق بشر بن المعتز (ت 20 هـ) في نصيحته الثمينة لكل من رغب في تجشم عوالم الإبداع "من أراد معنى كرما فليتمس له لفظا كرما فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصولهما عما يفسدهما ويهجنهما"¹⁸ ويرى بشر بن المعتز أن المعنى لا يكتسب شرفا بانتمائه لمعاني الخاصة كما أنه لا يتضع لكونه من معاني العامة، وإنما مدار الشرف هو قصد المعنى الصواب والحق والخير وما يحققه من منفعة و ما يعبر عنه من قضايا :

"والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك لا يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال"¹⁹

وللمحافظ مواقف وأحكام نقدية تقوم على أسس أخلاقية، جاءت متفرقة في ثنايا كتبه، منها إشارته إلى قضية الصدق وصلتها بالشعر، إذ يجعل على سبيل المثال الصدق معيارا لحسن الشعر و الكذب معيارا لقبحه، فيقول: "... ما كان منه صادقا فحسن وما كان منه كاذبا فقيح"²⁰

ومثلما رفض الجاحظ الكذب أنكر على المادح الإفراط والمبالغة: « وأنفع المدائح للمادح وأجداها على المدحوح، وأبقاها أثرا وأحسنها ذكرا أن يكون المدح صدقا وللظاهر من حال المدحوح موافقا وبه لاثقا ... وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوي، فأما الاشتغال على جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوي ... فهذا لا يعرف، قال خريش السعدي :

أخ لي كأيام الحياة إحاؤه
إذا عبت منه خلة فتركته
تلون ألوانا علي خطوبها
دعنتي إليه خلة لا أعيبها

وقال بشار :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا
فعض واحدا أو صل أخاك فإنه
صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذ أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظممت وأي الناس تصفو مشاربه.²¹

ولعلنا من خلال هذه الشواهد التي أوردتها الجاحظ ندرك البعد التربوي والأخلاقي الذي كان يرمي إليه وهو مشاركة الشعر ومساهمته في الارتفاع بالنفوس ولنا أن نحتّم مواقفه النقدية بهذه النصيحة الثمينة التي تنم عن عارف بحبايا النفوس خبير بأغوارها وبمواقع الكلام حسنة و قبيحة منها، فهو إذ ينهي عن قبيحه وإذ ينبذ كاذبه وإذ يدعو إلى شريفه إنما لعلمه بما للساقط منه من علوق بالنفوس وتأثير في المتلقين :

«... ثم أعلموا أن المعنى الحقير الفاسد والدينء الساقط يعيش في القلب ثم يبسط ثم يفرخ فإذا ضرب بجرانه ومكن لعروقه استفحل الفساد وبزل ، وتمكن الجهل وفرخ فعند ذلك يقوى داؤه ويمتنع دواؤه ... اللفظ المهجين الرديء والمستكره الغبيّ أعلق باللسان وآلف للسمع وأشد التحاماً بالقلب من اللفظ النبيه الشريف والمعنى الرفيع الكرم) ²² . فهو هنا وإن ركز على الجانب الأخلاقي لا يهمل الجانب الفني وضرورة الالتفات إليه (اللفظ المهجين واللفظ النبيه).

ويرى ابن قتيبة (ت 276 هـ) أن الشعر الجيد ما احتوى على فائدة ، ولا تخرج الفائدة عنده عن المعنى الأخلاقي أو الديني أو الحكمي ، فهو يقسم الشعر إلى أربعة أنواع أعلاه ما حسن لفظه وجاد معناها ، مثل :

في كفه خيزران ريحه عبق من كفّ أروع في عرينه شمع

يفضي حياءً ويفضي من مهابة فما يكلم إلا حين يتسم

وقال في التعليق عليه : " لم يقل في الهية شيء أحسن منه " ويقول أوس بن حجر

أيتها النفس لجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

وعلق عليه بقوله : " لم يتدئ أجد مرثية بأحسن من هذا " ويقول أبي ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تنقع

وفيه يقول : " حدثني الرياشي عن الأصمعي قال هذا أبداع بيست قالته

العرب ²³

ولنا أن نتأمل أبيات القسم الأول وما تحمله من قيم خلقية وشيم إنسانية رفيعة كالحياء والهبة عن حب واحترام لا رهبة والسماحة والوداعة ، والصبر والقناعة وغير ذلك من الصفات لتعلم أن المعين الذي كان يصدر منه هو معين المثل والقيم الإسلامية ويكفي أنه كان عالماً بالنحو واللغة والشعر وغريب القرآن ومعانيه ولفظه وفيه قيل أديب الفقهاء و فقيه الأدباء وقد تميزت أحكامه النقدية بالصرامة بتأثير منصب القضاء الذي تقلده حيناً من الدهر.

أما ابن طباطبا (322هـ) فيرى أن أفهام الناس تميل إلى ما اتصف من الكلام بالعدل والصواب... وتستوحش من الكلام الجائر الخطأ الباطل " والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق والجائز المعروف المألوف، ويتشوف إليه، ويتجلى له، ويستوحش من الكلام الجائر والخطأ الباطل والمحال المجهول المنكر، وينفر منه، ويصدأ له".²⁴

وقد مهد لهذين الاتجاهين اللذين تنفر النفس من أحدهما وتقبل على الآخر بباب " المثل الأخلاقية عند العرب وبناء المدح والمجاء عليها " عارضا جل الصفات التي يمدح بها العربي ويذم لأضداده، وأغلبها ذات أبعاد أخلاقية كالسخاء والشجاعة والحلم والحزم والوفاء والعفاف والبر والعمل والأمانة والقناعة والغيرة والصدق والصبر والورع والشكر والعفو والعدل والإحسان وصلة الرحم وكرم السر، ومن أضدادها التي أوردها: البخل والجبن والطيش والجهل والغدر والاعتزاز والفشل والفجور والعقوق والحيانة والحرص والمهانة والكذب والهلع وسوء الخلق والخور وقطيعة الرحم والنميمة والغفلة.... يقول في التعليق على تلك الصفات: " ولتلك الخصال المحمودة حالات تؤكدها، وتضاعف حسننها وتزيد جلاله المتمسك بها كما أن لأضدادها أيضا حالات تزيد في الخط ممن وسم بشيء منها، ونسب إلى استشعار مذمومها، والتمسك بفاضحها"²⁵ وليس هناك وسيلة أجمع من الشعر في نشر محمودها وطي مذمومها.

وهذا ابن الأنباري (توفي 328 هـ) يدعو في موقف صريح واضح إلى عدم رواية شعر أبي نواس أو تناقله لما يحدث في الملتقى من إثارة لجوانب ضعفه، كتب إلى ابن المعتز فقال: "...جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بت هاني والشعر الذي قاله في المحون... وإن لكل ساقطة لاقطة، وإن لكلام القوم رواة، وكل مقول محمول، فكسان حق شعر هذا الخليع ألا يتلقاه الناس بألستهم ولا يدونوه لأنه إنما يظهر في غلبة سلطان الهوى فيهيح الدواعي الدنيئة، ويقوي الخسواطر الرديئة، والإنسان ضعيف... والنفس في انصبابها إلى لذاتها بمنزلة كرة منحدره من رأس رابية إلى ما فيه

هلكتها. والحسن بن هانئ؛ ومن سلك سبيله فف الشعر كشفوا للناس عوارهم وهتكوا عندهم أسرارهم، وأبءوا مساوبهم ومخازبهم، ووحسبوا ركوب القبائح فعلى كسل متڤفن أن ٱبزم أءبارهم وأفعلهم، وأن فستقبف ما استحسنوه ..²⁶

* ومن الڤفن مثلوا هذا الٱبءاف بقوة وصرامة "البقلانف" (403هـ) فقء وقف موقفا عنبفا متشءءا مما ءاء فف معلقته امرئ القفس من شعر فاحش، فبقول معلقة على قوله: فمملك ءبلى قء طرفت ومرضع فألهبها عن ذف فمائم ءحول إذا ما بكى من ءلفها انصرفت له بشق وءمءى شقها لم ءحول الأول فف من الفحش والففحش ما فسفنكف الكرئم من مثله وفأنف من ذكره.

والثانف ءافة فف الفحش ونهافة فف السءف، وأف فائءة لذكره لعشبقته، كفف كان فركب هذه القبائح، فبذهب هذه المءاهب فببء هذه الموارء، إن هذا لففغضه إلى كل من سمع كلامه، وبوبء له المقت، وهو - لو صءق - لكان قببعا، فكفف وببوز أن فكون كاذبا، ثم ففس فف الببب لفظ ببءف ولا معنف حسن.²⁷

وفنفف ابن ءزم الأءءلسف المءوف سنة 463 هـ كل أنواع الشعر فف معرض ءءبفه عن الاسبس الهامة فف تربفة النشئ؛ تربفة قوبمة، فلا فبقف الا ما كان منه مواعظا أو ءكما فقول: "وما من قال الشعر فف الءكمة والزهد فقء أءسن وأءر واما من قال معا تبا لصءبفه ومراسلا له، وراثفا من مات من اءوانه بما ففس باظلا وماءءا لمن اسنءق الءمء بالءق، فففس باثم ولا فبكره منه ذلك. وأما من قال هاءفا لمسلم وماءءا بالءذب ومشبفا ببزم المسلمفن، فهو فاسق".²⁸

* وءءبلى ملامء المنءى الاءلاقف عنء ابن بسام 524هـ فف كتابه الءءبفة فف ءماسن أهل الءزفرة فف بباباته إذ فقرر إعفاء هذا الكتاب من الهءاء ففقول:

"ءسنء كتابف هذا عن شفن الهءاء، وأكبرته أن فكون مفءانا للسفهاء"²⁹ وفقول فف السمسفر - وقء عرف بالهءاء "أوله مذهب اسنفرء فف ببوء شعره من القءء فف أهل عصره صنء الكتاب عن ذكره"³⁰ وفقول فف ولءة بنسء

المستكفي " وكانت - زعموا - تقرض أبيتا من الشعر، وقد فرأت أشعارا منه في بعض التعاليق أضربت عن ذكره، وطويته بأسره، لأن أكثره هجاء، وليس له عندي إعادة ولا إباء، ولا من كتابي أرض ولا سماء." ³¹

وقد قسم الهجاء إلى قسمين هجو الأشراف الالذي لا يسف ولا يفحش وأورد له شواهد، وهجو الإقناع والإفحاش والإضحاك وأعرض عن شواهده، فيقول: " والهجاء ينقسم إلى قسمين هجو الأشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سببا مقذعا ولا هجرا مستشيعا وهو طأطا قديما من الأوائل وشل عرش القبائل، إنما هو توييح وتعبير وتقليم وتأخير ... والقسم الثاني وهو السبب الالذي أحدثته جرير وطبقته، وكان يقول: إذا هجوتم فاضحكوا وهذا النوع لم يهدم قط بيتا، ولا عيرت به قبيلة، وهو الالذي صنا هذا المجموع عنه وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه، فإن أبي منصور الالتهالبي كتب منه في يتيمة الالدهر ما وبقي عليه إثمه" ³²

و مثلما رفض الهجاء وجدناه يرفض الغلو والتناول الالذي يمس المقدسات يقول معلقا على أبيت الالسميسر:

ياليتنا لم نك من آام
أورطنا في شبه الأسر
إن كان قد أخرج ذنبه
فما لنا نشارك في الأمر

والسميسر في هذا الكلام ممن أخذ الغلو بالثقيل، ونادى بالحقمة من مكان بعيد، صرح عن ضيق بصيرته، ونشر مطوي سريرته، في غير معنى بعيد، و لا لفظ مطبوع، لعله أراد أن يتبع أبا العلاء، فيما كان ينظمه من سخيف الآراء، وهبه ساواه في قصر باعه وضيق ذراعه، أين هو حسن إبداعه ولطف إختراعه" ³³

*أما آخر فرسان هذا الإتجاه في النقد الأالبي القنم وأبرزهم وواضحهم رؤية وأقربهم إلى المدرسة النقدية الواضحة المعالم فحازم القرطاجين ولد 608هـ الالذي جمع بين الفقه و الأالء واللغة والنحو وبين نتائج الفلسفة الالجديدة والمنطق. ولأنه خير الفلسفة والمنطق فإن أول ما بدأ به هو تحييد مفهوم للشعر جمع فيه بكل دقة

مميزات هذا الفن فقال: "الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يجيب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره ما قصد تكريهه لتحمّل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليق الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو مجموع ذلك وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثيرها"³⁴

فهو وإن ركز اهتمامه على الأداء وحسنه، من حسن تخييل و حسن تأليف لا يهمل الجوانب الأخلاقية المتمثلة في أثر ذلك النص الشعري الجميل في النفوس إذ به تحب النفس أشياء لم تكن تلتفت إليها وبه تكره أخرى لم تنكشف معانيها إلا بأنواره الخفية فتطلب الحس وتقبل عليه وتفر من القبيح وتتفر منه ...

وقد قاده حديثه عن التخييل إلى التطرق لبعض الآراء والتصورات الخاطئة التي ترى التخييل وهما وخيالاً لتصل إلى نتيجة مفادها أن الشعر كاذب في جملته ظناً منهم أن التخييل ينافي اليقين . ومن وعيه بمهمة الشعر حاول توضيح الأمر، مؤكداً أن الأقاويل الصادقة في الشعر هي الأصل و يقول: "إن قول من قال إن مقدمات الشعر لا تكون إلا كاذبة كاذب"³⁵.

وإذا كان الضد في الشعر هو الأصل فإن الكذب عنده لا يلجأ إليه إلا لضرورة، لذلك وجدناه يقيد استعماله الكذب بضوابط صارمة توضح حدوده وترسم المعالم التي يجب عدم تحطيتها، منطلقاً في ذلك من ثقافته الدينية والفلسفية في آن، ومفاد نظريته "أن الكذب في رأيه منه ما يعلم من ذات القول دون الحاجة إلى قرينة من خارج القول المتناقض مثلاً، ومنه ما لا يعلم كذبه من ذات القول... وقد لا يمكن التوصل إلى معرفة كذبه من خارج القول وذلك كالاختلاق الإمكانى (أى أن يدعى شاعر شيئاً لا وجود له ولكنه ممكن الوجود) وإلى ما يعلم أنه كذب من خارج القول بالضرورة كالاختلاق الإمتاعي "كان يخلق الشاعر ما يتمتع وجوده..."³⁶

والكذب المستساغ عنده هو "الإختلاق الإمكانى" الذي يقول فيه :

"فالكذب الإختلاقي في أغراض الشعر لا يعاب من جهة الصناعة لأن النفس قابلة له ، إذ لا استدلال على كونه كذبا من جهة القول و لا العقل ، فلم يبق إلا أن يعاب من جهة الدين ، وقد رفع الحرج عن مثل هذا الكذب أيضا في الدين ، فإن الرسول p كان ينشد النسيب. أمام المدح فيصغي له ويثيب عليه"³⁷

فالاختلاق الإمكانى في الأغراض جازز كالمقدمات الغزلية وكذلك الأمر في جهات الشعر "موضوعاته" فمن أكد مثلا شعورا خاصا نحو أمر ما من غير أن يكون ذلك صحيحا لا يكون الأمر معينا ما دام يحتمل إمكانية الوجود الفعلي.

أما النوع الثاني "الإختلاق الإمتناعي والإستحالي" فغير مستساغ و لا مستحسن "ليس يقع للعرب في جهة من جهات الشعر أصلا"³⁸ ، وقد استشهد لهذا الضرب بما عرفه الشعر اليوناني من أساطير لم تقع و لا تحتمل الوقوع مثل صراع الآهة ومغامراتها... فهو انطلاقا من وعيه الديني وعقيدته يستبعد وقوع مثل هذه المعاني في الشعر العربي وينفيها عنه.

و هو لذلك يسعى جاهدا إلى التوكيد على أن الأقاويل الشعرية، يمكن أن تبني على الصدق وذلك هو الأصل فيها، و لا يستحسن الانتقال منه إلى الكذب إلا لضرورة ملحة.

وعلى الشاعر ألا يخرج عن حدود المعقول فيصور أشياء يمتنع وجودها أو يستحيل، أو يقوم بقلب حقائق مشهورة ومشاهدة.

وقد تصدى حازم القرطحاني للهجمة الشرسة التي شنّها البعض على الشعر وحاولوا التشكيك في جدواه لأنه مرادف في نظرهم للكذب، وما بني على الكذب لا يمكن أن يكون له شأن في مجتمع يرى الكذب رذيلة، لأن الغاية النبيلة لا تسدرك إلا بوسيلة نبيلة، فصحح حازم ذلك الإعتقاد السائد في أن الشعر كله مبني على الكذب وأكد أن التخيل لا يناقض الصدق، محاولا صرف اهتمام الشعراء إلى الأهم من ذلك

ألا وهو الإبداع الشعري الذي تأتي الغرابة من مقدمة أدواته " وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والمهيئة، واضح الكذب، خليا من الغرابة"³⁹

وربما كانت طائفة الشعراء المتكسبين المتزلزين للحكام المزيفين للحقائق سببا في رواج تلك المواقف اليائسة من جدوى الشعر، فانسحبت جناية الوضع على الشريف - كما قال حازم - .

وما نفور الناس من الشعر في عصره إلا لذلك الدور السليبي الذي كان لبعض شعرائه، لذلك رأيناه في تحديده لمفهوم الشعر يركز على وظيفته " يجب إلى النفس المحامد ويدعوها إلى طلبها ويكره إليها المقابح وينفرها منها" لأن خواص الشعر وما ينبني عليه جوهره تجعل النفس تنساق إليه وتستجيب له لأنه يخاطب الشعور، ومقصد الشعر عند حازم هو " إلهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التحلي عن فعله أو طلبه أو اعتقاده بما يحيل لها فيه من حسن أو قبح أو جلالة أو خسة"⁴⁰.

فالتحسين أو التقييح الذي يفضى إليه التحجيل في العملية الإبداعية في الشعر من شأنه أن يدفع الملقى إلى اتخاذ موقف سلوكي محدد.

إن للشعر عنده وظيفته الأخلاقية التي يويدها والتي يحددها في: " استجلاب المنافع واستدفاع المضار ببسطها النفوس إلى ما يرد من ذلك، وقبضها عما لا يرد بما يحيل لها فيه من خير أو شر"⁴¹ وقد حدد الطرق التي بواسطتها يتم التحسين أو التقييح في أربعة مواطن:

إما أن يتم التحسين والتقييح من جهة الدين بذكر الثواب على فعله و اعتقاده أو العقاب على تركه واعتقاده نقيضه.

أو يتم من جهة العقل وما يجب أن تؤثره النفس من حيث هي عاقلة مدركة متحلية بالفضائل، تاركة للردائل.

3- وإما أن يتم من جهة المروءات والكرم بإيثار الذكر الحسن والأنفقة

من الذكر القبيح.

4- وإما أن يتم من جهة الحظ العاجل والشهرة وما هو معروف من حرص النفس واشتهاها المنفعة والنعمة، وما تنفر منه من المضرة وسوء الحال⁴².
وفي كل هذه الطرق يتضح الاعتبار الأخلاقي الذي أكده حازم دون أن يغفل الاعتبارات الجمالية الفنية، لأن نبل الغاية لا يشفع للشاعر إهمال نبل الوسيلة، فالغاية السامية تتطلب الأداة السامية.

ولأهمية هذا الفن وخطر رسالته هاجم حازم القرطاجني شعراء عصره الذين انحدروا به عن تلك الغاية، "ران على قلوب شعراء المشرق المتأخرين وأعمى بصائرهم عن حقيقة الشعر منذ مئتي سنة.."⁴³.

وقد ساهم في صناعة هذا المشهد الثقافي المتردي فحة من النقاد اعتبرت الشعر مدعاة لسوء الأدب وفساد المنقلب لأنه في اعتقادهم يحمل الشاعر على الغلو في الدين حتى يؤول إلى فساد اليقين ويحمله على الكذب، ويقول في هؤلاء في لهجة قوية حازمة قاسية: "كثير من أنذال العالم - وما أكثرهم - يعتقد أن الشعر نقص وسفاهة، وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر واعتقادهم فيها ضد ما اعتقده هؤلاء الزعانفة"⁴⁴.

من كل ما تقدم ننتهي إلى إدراك أهمية الشعر وخطره في آن، وحاجة المجتمع إليه في إرساء القيم الحميدة وطرح ما عداها من مفاسد، وقد أقر جل الذين أوردنا مواقفهم بضرورة نبل الأداة حتى تتناسب ونبل الغاية التي ترمي إليها وهو ما يعرف بالجودة الفنية ذلك أن جمال المعنى وجلاله وشرفه لا يعني عن جلال اللفظ وجماله وشرفه، كما اتفقوا على مصطلحات معينة ذات صلة مباشرة بالجانب الأخلاقي المرتبط بالإسلام، المنطلق من تعاليمه مثل (الحسن والقبح، ما وافق الحق، الطيب والخبيث، تزيين النفس، وتأديب الغير، المعنى الكريم واللفظ الكريم: المعنى الشريف واللفظ الشريف، الصدق معيار للحسن والكذب والخطأ معيار للقبح، المعنى الحقيق الفاسد، الدين

الساقط، الفظ الهءبن المسكره، اللفظ النببه الشرفى والمعنى الرفبع الكرفم، شبن الهءاء) وهى ءمبعا مصطلءاء مسءمءة من القاموس العربى الإسلامى السءبى بضع القبم والمءل فى مقءمة اهءماماءه.

ولعل الوءبء الذى ءفرء باسءعمال مصطلءاء علمبة ءءبءة هو ءازم القرءءابى الفبلسوف اللغوى الفقهى الذى أفاء من معرفءه بالمنطق وءساء بمصطلءاء مءل الاءءلاق الإمكابى " المقابل للءذب المرفوض، ءون أن بءرء عن البعب الأءلاقى للشعر.

ولعل أبرز قضاة بمكن اسءءلاصها والءركبز عببها من كل ءلك ءوءببهاء والءعربفاء والمواقف هى ما بمكن ءسمبءه "بوظبفة الشعر" أو آءره الءطبر، إنه سلاح ءو ءءبن، لءلك رأبناهم بءمعون على رفض ما لا بءءمءبء، بل بعود عببه فى كل الأحوال بالمفاسء بءاء بالءزل الفاءش والهءاء المقءع، والمءبء الكاءب ... لبءركوا بعء ءلك بءال الإبءاع للشعراء برفعون بالناس أنى اسءءاعوا، بهم بسءوا البءبى وببر العاق وبكظم الفاضب عبضه، وببءم البببب والءامل، و نعمء الأءاة هى و كفى الشعراء الءبن بءملون هءا اللواء الرسالبة البباء فقرا.

الهوامش:

- 1- طه أحمد إبراهيم تاريخ النقد الأدبي عند العرب - دار الحكمة - بيروت - ص 11 .
- 2- ابن رشيق القيرواني - العمدة . دار المعرفة - بيروت - ط 1 . 1408-1988 - ج 1/ص 85
- 3- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 4- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 5- عبد العزيز عتيق - تاريخ النقد الأدبي عند العرب - دار النهضة - 1986 - ص 50.
- 6- ابن رشيق - العمدة ج 1/ص 88
- 7- المرجع نفسه - 209/1.
- 8- الأصفهاني - كتاب الأغاني - دار الثقافة - بيروت - ط 6 - 1983 - ج 22 . ص 330.
- 9- ابن قتيبة - الشعر والشعراء ص 207.
- 10- المصدر نفسه ص
- 11- ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج 5 ص 274
- 12- المصدر نفسه - ج 1 ص 271.
- 13- الأصفهاني - كتاب الأغاني - ج 1 - ص 113 - 114 ، للتوسع أنظر ابن أبي عتيق ناقد الحجار (أخباره ونقده) عبد العزيز عتيق - جامعة بيروت العربية - 1972 .
- 14- الأصفهاني - الأغاني - ج 1 ص 84.
- 15- أبو نواس - الديوان - دار الكتاب العربي - لبنان - ط 1 - 2003 - ص 38.
- 16- أنظر على سبيل المثال: طبقات فحول الشعراء للحمحي وكيف صنفهم على أساس في محض فجعل امرؤ القيس أولهم. ومثله نقد الشعر لقدامة بن جعفر والبديع لابن المعتز والوساطة بسين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني....
- 17- نجوى صابر - النقد الأخلاقي أصوله وتطبيقاته - دار العلوم العمري - لبنان - ط 1 - 1990 - ص 43.
- 18- الجاحظ - البيان والتبيين - ج 1 ص: 75-76.
- 19- المصدر نفسه - ج 1 ص: 36-38.
- 20- الجاحظ: رسائل الجاحظ 160/2 - 161

- 21- المصدر نفسه - ج 1 ص : 36-38.
- 22- الجاحظ البيان والتبيين ج 1 - ص: 48.
- 23- ابن قتيبة - الشعر والشعراء - دار احياء العلوم - بيروت - ط 5 - 1994 ص 24-25.
- 24- ابن طباطبا - عيار الشعر - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1982 ص 20
- 25- المصدر نفسه 18 - 9.
- 26- المحصري القيرواني - جمع الجواهر في الملح النوادر - تحقيق علي البحاي ط الباني الحلبي 1953 ص 40
- 27- نجوى صابر - النقد الأخلاقي - ص 31.
- 28- المرجع نفسه ص 33
- 29- ابن بسام - الذخيرة 1/1 ص 544.
- 30- المصدر نفسه 2/1 ص 883.
- 31- المصدر نفسه 1/1 ص 432.
- 32- المصدر نفسه 1/1 ص 544 - 546.
- 33- المصدر نفسه 1/2 ص 378.
- 34- حازم القرطاجني - منهاج البلغاء وسراج الدباء تحقيق الحبيب بن الخوجعة - دار الكتب الشرقية تونس 1966 ص 83.
- 35- المصدر نفسه و الصفحة نفسها .
- 36- سعد مصلوح - حازم القرطاجين ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر - 174.
- 37- حازم القرطاجين - المنهاج - 78-79
- 38- حازم القرطاجين - المنهاج - 68
- 39- المرجع السابق 72.
- 40- المرجع نفسه 85.
- 41- مرجع نفسه 337.
- 42- المصدر نفسه 106-107.
- 43- المصدر نفسه 10.
- 44- المصدر نفسه 124.